ملحمة الحرافيش

٢

نجيب محفوظ

■ ملخص مانشر

ما أن انتهى عمر العام الذى فرضه الشيخ شاور على جلال قربانا لوهم الخلود الأبدى ومعاشرة الجن.. حتى خرج يحاول استثمار ما توهم أنه اكتسب.. استعاد للحارة فى البداية مكانتها الضائعة وعاقب كل الذين تجاسروا عليها.. ولكنه أمعن فى الشذوذ والغلظة.. كانت زينات امرأة الليل تتعذب لتصرفاته الخرقاء.. وغراميات المتعددة.. هى التى عشقته بكل ذرة فى كيانها. ودفعها الحب مختلطا بالكبرياء الجريحة أن تقتله بالسم تتخلص من عذابات الحب وتخلصه من جنون السفه.. وعند حوض الدواب كانت نهايته!

ثم انكشف السر وراء تصرفات جلال الغريبة.. هس المعلم عبد الخالق العطار بدور الشيخ شاور.. فاخذى شاور وجاريته هربا من غضب الخلق.. والتزع البعض هدم المئذنة ولكن البعض خاف انتقام الجنى الذى يسكنها فتركت رمزا للشر والجنون يلفها الرائح والغادى فى الصباح والمساء.. واكتشفت زينات أن جلال قد ترك فى بطنها جنينا.. وعندما أسمته جلال بكل صراحة وجرأة.. ورفض عبد ربه الفران وابنه المعلم راضى أن يتزلا لها عن أى شىء من تركة الأب. امرأة مثلها كيف تعرف من يكون أبا لابنها! تألما المعلم راضى.. وبرغم أن الحارة كانت تنظر إليه كابن حرام.. كان نمو المطرة يؤكد بأنه ابن حلال بلا منازع.. حقا لم يكن فى مثل قوة الأب ولا عضلته ولا جماله.. ولكن الصورة كانت طبقا للأصل!

واشتعل جلال عند المعلم الجدع صاحب عربات الكارو الذى رفض أن يزوجه ابنته عفيفة عندما خطبها منه زينات.. ولكن جلال تزوج بعفيفة بعد موت الجدع.. وأنجب منها البنات أولا وعندما رضعت له ذكرا.. انطلق بكل الكبرياء النغمة ليسمعه شمس الدين جلال التاجى وتوالى له الرزق ميسورا وفيافا.. كما توافرت له الاستقامة والسمعة الحسنة.. ولكن بعد وفاة أمه زينات تغيرت أحواله.. بكاها يومها مر البكاء.. ولكنه بعد ذلك أخذ يلعنها.. ويعتبرها ينبوع الشر فى حياته.. وتبدل سلوكه تماما.. أقلع عن الصلاة.. وعرف قدماه الطريق الى البوظة والى بيت الجيانة «دلال» انغمط منه الزمام وأصبح رجل الاخلال والفضائح وتعذبت عفيفة.. وتعذب شمس الدين.. ولكنها اللعنة والمقدور!

وتناهى إلى شمس الدين ذات ليلة بأن أباه يرقص فى البوظة فى وضع يقترب من العرى الكامل.. وذهب ليراه هكذا والسكارى يصفقون.. وحاول شمس الدين أن يعيد للأب وقاره وأن يخرجه ولكن جلال انتفض مزمجرا يكيل له الكلمات منوالية.. حتى خارت قواه.. وأنهار ولد لقد الوعى.. وساد الصمت ليسمع شمس الدين قول أحدهم لنلت أباك يا شمس الدين فأليه نيابه رحله بين يديه تشيعه قهقهات السخرية الغليظة!

٢١

أفاق المعلم جلال بعد قليل فوق فراشه بمكه الشرعى. جالت عيناه الحمراوان فيما حوله فرأى عفيفة وشمس الدين ومعالم الحجرة الكريهة. سرعان ما تذكر كل شىء. أنه الليل وكان ينبغى أن يكون فى فراش دلال. وهذا الفتى قد جعل منه سخرية السكارى وأعدم هيبة الأبوة. جلس فى الفراش وهو ينفخ. وثب الى الأرض. انقض على شمس الدين وراح يكيل له الضربات. ورمت عفيفة نفسها بينهما باكية. تحول جلال إليها فاته الرشد. قبض على عنقها وشد بوحشية. عبثا حاولت المرأة التخلص من قبضته. تجلت فى وجهها البائس معالم الاختناق والموت. صاح شمس الدين

- دعها... إنك تقتلها..

لم يحفل به متنشبا بوحشية الجريمة. فزع شمس الدين إلى مقعد خشبى فرفعه وهوى به على رأسه بقوة جنونية..

٢٢

حل هدوء ثقيل محل الصراخ والانفعال الأخير. أسلمنى المعلم جلال فوق فراشه مضرجا فى دمه. اقتحم السكن جيران رجاء أيضا مجاهد أبراهيم شيخ الحارة. وقدم الحلاق لتقديم الاسعافات الضرورية وأيقاف الدم السائل. على حين أنزوى شمس الدين فى زاوية مستسلما للأقدار.. وغاب الزمن غماما.. وأنداحت لحظة ساخرة مفعمة بكافة الاحتمالات. لحظة عشوائية أقوى من كافة وسائل التفكير والتدبير. وأدركت عفيفة كما أدرك شمس الدين أن الحاضر يدفع الماضى وبعدمه وبدفنه. وتمتم مجاهد إبراهيم

- أى قدر يعيث بأب ووحيده..

فوارات عفيفة هاتفة

- إنه الشيطان..

وخيم صمت فوق جلال مثل جبل. ما زال صدره يعلو وينخفض. هتف مجاهد ابراهيم

- يا معلم جلال!

وهتفت عفيفة

- لتشملنا رحمة الله القدير..

سأل شيخ الحارة الحلاق

ماذا تجد؟

فأجاب الحلاق وهو لا يكف عن عمله العمر بيد الله ولكن لك خبرتك أيضا!

فاقترب منه وهمس فى أذنه

- لا نجاة من تلك الضربة.

٢٣

فتح جلال عبد الله عينيه المظلمتين. لم يكد يعرف أحدا. طال صمته حتى حطم أعصاب من حوله ولكنه أخذ يستعيد قبسات من إدراكه. تمتم إنى راحل!

تأوهت عفيفة قائلة

- بعد الشر عنك.

فعاد يتمتم

إنى لا أخشى الظلام..

إنك بخير

- لتكن إرادة الله..

اقترب مجاهد ابراهيم من الفراش، وقال

يا معلم جلال، أنا مجاهد إبراهيم. تكلم أمام هؤلاء الشهود..

فتساءل جلال بصوت ضعيف

- أين شمس الدين؟

فدعاه مجاهد ابراهيم الى الاقتراب فاقترب وقال شيخ الحارة

- ها هو ابنك..

- إنى راحل..

فسأله شيخ الحارة

- ماذا حصل؟

- قضاء الله..

- من الذى ضربك؟

- وسكت الرجل تألم مجاهد أبراهيم قائلا

- تكلم يا معلم جلال..

- إنى راحل..

- من الذى ضربك؟

فقال متنهدا

- أبى!

- الأموات لا يضربون. يجب أن تتكلم..

فتنهد مرة أخرى وقال

- لا أدرى..

- كيف؟

- الحارة مظلمة

◄◄◄

- هل اعتدى عليك فى الحارة ؟
- أو فى مدخل البيت ..
- لا شك أنك عرفت الجانى ..
- كلا .. أخفاه الظلام والغدر ..

- لك أعداء ؟
- لا أعرف ..
- هل تشك فى أحد ؟

- كلا ..
- أنت لا تعرف الجانى ولا تشك فى أحد !

- بلى . استغفث بأبى فجاء ليحملنى ثم غبت عن الوجود .

سكت مجاهد ابراهيم . حدقت الأعين بجلال وكان يحتضر ..

㉕

ذهل شمس الدين وهو يصغى إلى صوت أبيه قبل أن ينقطع . خانته الشجاعة فلم ينبس بكلمة . تانى حنان أبيه المحتضر يخشوع وجبن وندم . زاغ من نظرات مجاهد إبراهيم تدفق وجهه فى يديه وبكى . وطيلة يوم الجنازة وأيام المأتم لم يغمض له جفن . تحوك بين الناس شبحا تطارده أشباح المجرم . لقد جن جده وجنت جدة أبيه وارتكب نفر من السلالة أبشع الانحرافات ولكنه أول من يقتل أباه من أى الناجى الملعونين . ولما خلا إلى أمه قالت تشجعه

- أنك لم تقتل أباك ولكنك دفعت إلى الدفاع عن أمك ..

وأيضا تساءلت

- أليس الله يعالم بكل شىء ؟ !

ثم قالت بحرارة

- إن الشهادة التى حاك بها خليفة بالتكفير عن ذنوبه جميعا . وسوف يلقى ربه طاهرا مثل طفل وليد ..

وأغرق شمس الدين فى البكاء وتمتم

- لقد قتلت أبى !

㉖

ودعاه المعلم عبد ربه للثمانه فى « القلعة » دار جلال صاحب المئذنة . كان يعلم أنه والد جده جلال وأنه فى الثانية من عمره . وجده هرما لا يفارق داره . ولا حجرته . ولكنه كان بالقياس إلى عمره موفور الصحة والنشاط . وفورا . يرى الأشياء ويسمع الأصوات ويعى الأمور . عجب شمس الدين لتعمير الرجل بعد وفاة ابنه وحفيده . ولم يكن يحمل له ذره من حب أو احترام . ولا ينسى مقاطعته لأبيه ..

تفحصه طويلا وهو يقربه من وجهه ثم قال

- البقية فى حياتك ..

فرد عليه ببرود فقال عبد ربه

- فى وجهك شبه من جلال بن زهيرة ..

فقال ببرود

- لقد قاطعت أبى ..

فقال بهدوء

- كانت الأمور معقدة .

فقال بتحد

- بل الطمع الطمع فى التركه !

- كل تركة عدا عهد عاشور فهى لعنة .

- ولكنك تتمتع بها لأخر لحظة فى حياتك ..

فقال العجوز بنبرة مضطربة

- دعونك لأعزيك ، خذ نصيبك من التركة إذا شئت ..

فقال شمس الدين وكأنه يكفر عن جريمته

- إنى أرفض كرمك ..

- أنك عنيد يا بنى ..

- إنى أنكر من أنكر أبى ..

عند ذاك أغمض العجوز عينيه فغادر شمس الدين المكان

㉗

لم يجد شمس الدين بدا من مواجهة الحياة . أنطبع وجهه بجدية تكبره بنصف قرن . أخذ نفسه بالتقوى والاستقامة . حل محل أبيه فى إدارة العربات فهرب من ذاته بالإغراق فى العمل . عرف فى الحارة بقاتل أبيه . أعتبر لعنة متحركة فى مقابل المئذنة تلك اللعنة الثابتة . وبتساءل أناس ماذا تتوقعون من شاب أبوه أبن حرام وجده صاحب المئذنة ؟ . صمم شمس الدين على تحدى اللعنة يوجهه الصارم وإرادته الصلبة وقلبه المترع بالندم . أخلص لدينه تصدق على الفقراء . عامل زبائنه بالحسنى . مضى فى الحياة منفيا ملعونا . استقرت فى عينيه نظرة كئيبة . كره الفكاهة . تجنب الغناء والطرب . حذر من البرطلة والغرزة . لفحته مشاعر الناس فكره الناس ولكنه تمسك بالحياة ..

㉘

ولم تجد عفيفة الجدع من دواء لحال شمس الدين خيرا من أن تزوجه . أعجبتها صادقة بنت بياع الفول فخطبتها له مزكية إياه بعمله وأصله ولكن الأسرة أبت أن تزوج أبنتها من قاتل أبيه . ولم يكن شمس الدين يهتم كثيرا بالزواج ، ولكن الرفض عمق جراحه فصمم على الزواج بأى ثمن .. وكانت توجد راقصة تدعى نور الصباح العجمى ، مجهولة الأصل منهتكة . أعجبه منظرها نزارها منتزرا بالظلام ، لا ليعاشرها كما توقعت ولكن ليخطبها ! . ودهشت البنت ، وظنته يرسم لاستغلالها ولكنه قال لها بصدق

- بل أريدك ست بيت بكل معنى الكلمة ..

فأضاء وجهها بالفرح وقالت

- إنك شاب نبيل وإنى أستحق ذلك !

㉙

وحزنت عفيفة فقالت محتجة

- إنها بنت داعرة

فقال شمس الدين بكآبة

- مثل جدتى زينات !

ثم منعتا بسخرية

- ما أكثر الداعرات فى أسرتنا المجيدة !

- لا تيأس بسرعة يا بنى ..

فقال بامتعاض

- إنها الوحيدة التى تقبلنى بلا امتعاض ..

㉚

وزفت نور الصباح العجمى إلى شمس الدين جلال الثانى . وهنك شمس الدين ستار الانكماش فأقام

بريشة : محمد ابراهيم

حفلا شهده عمالة وأهل أمه، ومجاهل من يتجاهلونه. ويخرت الحارة من الزيجة فجرى على الألسنة ذكر زينات وزهية، وذكريات الأسرة التي هبطت من السماء لتمزع أخيرا في الوحل. وبكل لحة قال عتبة الفوال الخبار

- ألم يكن عاشور نفسه لقيطا؟.. ألم تكن أم الأسرة الأولى عاملة في هذه البرطة؟!

(٣١)

وقيض للزواج أن ينجح. تحولت نور الصباح العجمي إلى ست بيت. سعد بها شمس الدين فاستقر جانب من جوانبه القلقة. ولم ينقص صفو البيت من أن لأن إلا المشاحنات بين عفيفة ونور الصباح. وبقدر ما كانت عفيفة صارمة غير متسامحة كانت نور الصباح جادة سليطة اللسان. ولكن المعاشرة لم تتحطم. وأنجبت نور الصباح من البنات ثلاثا، وأخيرا جادت بسماحة شمس الدين الناجي

(٣٢)

ويتقدم الزمن تناسى شمس الدين همومه وذنبه ما أمكن ولكن الكآبة كانت قد صارت له طبعا. ونشأ سماحة وليس له جمال أبيه أو جده ولكنه يبشر ببنيان أشد. ورلعت به أمه وجدته فحافظا عليه ككنز غال. ولم يحقق سماحة نجاحا في الكتاب. وتشاجر ذات يوم مع قرين فضربه باللوح فكاد يفقده عينه وأوقع أباه في مشكلة لم يخلص منها إلا بتعويض لايستهان به. ولما عليه فضربه حتى أحزن أمه وجدته. وجرى الى العمل في الخطيرة قبل الأوان وهو يقول له

- تعلم أدب الحياة بين الحمير.. وها سماحة تحت رعاية أبيه الكئيب وسرعان ما شارف المراهقة..

(٣٣)

ورغم أن الفتى لم يكن يغيب عن عيني أبيه من الصباح حتى النوم إلا أنه لم يطمئن الى أحواله تماما. فأنس منه جموحا وتوقع منه المتاعب.

وذات يوم جاهد مجاهد إبراهيم شيخ الحارة وقال له

- أول ما شطح نطح!

شعر بأنه يعني أنه سماحة ولكنه لم يصدق لشدة إحكام نبشته حول الفتى. وتساءل عما هناك فقال شيخ الحارة

- هل تصدق أن ابنك مرافق كريمة العناني؟

تذهل شمس الدين. متى يفعل ذلك؟. قال

- إنه لا يغيب عن ناظري حتى أودعه فراشه!

فضحك مجاهد إبراهيم وقال

- ثم يتسلل من البيت وأنت نائم.. وذهل شمس الدين مرة أخرى لأن كريمة العناني أرملة تقترب من الستين من عمرها وابنه مرافق ليس إلا وقال له مجاهد إبراهيم

- أحذر أن يعتاد الولد البرجمة!

(٣٤)

وتربص شمس الدين في الظلام أمام دار كريمة العناني. جاء بعد أن تأكد من أن الولد قد غادر فراشه وها هو ينتظر. وقبيل الفجر بساعة فتح الباب وتسلل منه شبح. سقط في يد أبيه. فزع أول الأمر. هم بضربه لولا أن عرف صوته فانتهر

- أيها الخنزير.. وشده بعنف فشم رائحته فصاح

- وسكران أيضا!

ولطمه لطمة طيرت الخمر من رأسه. وفي البيت عنفه وضربه حتى استيقظت نور الصباح وعفيفة، ومضت الحقيقة تتكشف لها من خلال اللطمات والكلمات. وقال سماحة

- كفى يا أبي وجهي يتحطم

- إنك تستحق القتل، تخدعني؟

- تبت وأنا في عرضك!

وقالت عفيفة

- أنها أكبر مني المجرمة..

فصاح شمس الدين وهو يشير إلى سماحة

- هو المذنب ولا أحد سواه!

(٣٥)

وقال شمس الدين لنفسه إن القدمات تنذر بأرخم العواقب. وأن من يبدأ بعشق امرأة في سن جدته نكيف ينتهي؟. وقد رأى كريمة هائم العناني في بعض مشاويرها فهاله نصابها وزواقها وبدانتها المفرطة. وآمن بأن أمرا ما ينشأ عليه مراهق أن يألف أن تنفق عليه امرأة.

وفي ذلك الوقت توفي مؤنس العالم فخلفه في الفتونة جمعة الكلبشي فازدادت أحوال الحارة حطة وإظلاما. وتلق الحرانيش البلوى كقدر مكتوب لا مفر منه، فلم تعد الفتونة - بصرف النظر عن هوية الفتوة - إلا بلوى نائمة.

(٣٦)

وتوفي الجد عبد ربه فشيع في جنازة كبيرة لم يشترك فيها شمس الدين ولا سماحة. وعرف بعد ذلك أنه أوصى للفتى سماحة بخمسمائة جنيه. وطالب سماحة بميراثه ولكن أباه أبى أن يسلمه إياها إلا أن يبلغ رشده. وشدد الرقابة عليه حتى عانى الفتى حياة مريرة. وذات مرة حانت من شمس الدين نظرة الى الفتى رآها بعملان في الخطيرة فضبط في عينيه نظرة جديدة انقبض لها صدره فقال لنفسه

- الولد لا يجبني!

وتنهد مغتما وقال

- لا يدرك الأحمق أنني أعمل لما فيه خيره..

(٣٧)

وتدافعت الأحداث مثل زبد النهر الأغبر. ولاحظ شمس الدين ذات صباح وهو يحتسي قهوته في بيته قلقا أسود بلف عفيفة ونور الصباح فحتق قلبه وتساءل

- سماحة؟!

فتلق صمتا مريبا ضاعف من أحزانه فسأل بحدة

- ما الجديد من متاعبه؟

بكت نور الصباح وقالت عفيفة بنبرة متشنجة

- ليس في البيت..

- رجع الى التلل؟

بل غادرنا!

- هرب؟

ومضى مشحونا بسوء الظن إلى الحارة فاكتشف أختفاء الميراث فصاح

- لص أيضا..

فقالت أمه

- حلمك يا بني، إنه ماله..

فقال بإصرار

- لص هارب!

ونقل عينيه بارتياب بين المرأتين وتساءل

- ماذا يحدث وراء ظهري؟!

(٣٨)

تصور أنه لانذ بدار كريمة العناني. أنضى بظنونه إلى شيخ الحارة مجاهد إبراهيم. وقام الرجل بتحرياته ثم قال له

- لا أثر لسماحة في حارتنا!

وأيقن أن الله يعاقبه على جريمته. عليه أن يكفر عن جريمته كما كفر عن جرائم الآخرين. ولا يبعد أن يقتله الفتى ذات يوم. لم لا؟. إنه لا يحسن بهذه الدنيا ظنا. وألقى على المئذنة نظرة وحشية وتساءل

- لم يبقون على هذه اللعنة نائمة؟!

(٣٩)

لم يعثر على أثر لسماحة رغم أن شمس الدين أوصى جميع السواقين عنده باليقظة والتحري. ها هو الفتى يمضي في أثر المختفين من رجال الأسرة ونسائها.

وتتلاحق الأعوام أما عفيفة فقد ماتت في أعقاب مرض طويل. وأما نور الصباح فقد امرت الأيام ما كان منها حلوا. ومضى شمس الدين يحمل أثقاله، ويغمغم كلما حزبه أمر «أمرك يا رب»

البقية في العدد القادم